

الاقتصاد في فصوله الخمسة

ديفيد بروكس

صحيفة نيويورك تايمز

25 مارس 2010

The Return of History

By David Brooks

The New York Times Newspaper

ترجمة: علي الحارس

- من كتاب (مقالات الأعمدة) في صحيفة (نيويورك تايمز) منذ عام 2003.
- عمل محررا في مجلة (ويكلي ستاندارد) منذ انطلاقتها.
- كان من كتاب (مقالات الأعمدة) في صحيفة (وول ستريت جورنال).
- عمل محررا مشاركا في مجلتي (نيوزويك) و(اتلانتيك مونثلي).
- عمل محللا في إذاعة (NPR).
- عمل أستاذا للسياسة العامة في جامعة دوك.
- إجازة في التاريخ. جامعة شيكاغو.



ديفيد بروكس

لا بد أن يبادر أحد العلماء الأفاضل إلى كتابة تأريخ شامل للاقتصاد الحديث. وذلك لأن التطور الذي حدث في هذا المجال يعد دون ريب من أكثر الأمور التي تحدث في عالم اليوم تأثيرا على الحياة العامة.

الفصل الأول من هذا التاريخ سيتناول عصر المنهج العلمي في التعامل مع الاقتصاد: وهي الفترة التي أسس فيها الاقتصاديون نظرياتهم على نسخة غير ناضجة للطبيعة البشرية (الفرد المستقل العقلاني تماما الذي يستثمر الموارد بأقصى إمكاناتها). ثم صمموا نماذج تفصيلية على مقياس هذا الكائن.

أما الفصل الثاني فقد دارت أحداثه خلال العقود القليلة الماضية. وذلك عندما حاول بعض الاقتصاديين الشجعان أن يتجاوزوا المفهوم المبسط السابق عن الطبيعة البشرية: فأشار هربرت سايمون (Herbert Simon) إلى أن البشر ليسوا عقلانيين تماما. وقام غاري بيكر (Gary Becker) بتحليل التصرفات التي لا تبدو ناتجة عن مصالح شخصية ضيقة

الاقتصاد في فصوله الخمسة

كرعاية الأطفال والإيثار. وأوضح ايموس تفيرسكي (Amos Tversky) ودانييل كانيمان (Daniel Kahneman) أن الناس يميلون إلى تحيزات مشتركة عندما يحاولون اتخاذ قرارات موضوعية. وفي هذه المرحلة التاريخية تطورت الأفكار الاقتصادية شيئاً فشيئاً نحو التعقيد والتشعب.

بعد ذلك يأتي الفصل الثالث: الأزمة الاقتصادية التي حدثت عامي 2008 و2009؛ وهذا الفصل يعد نقطة تحول فريدة من نوعها حيث كشف عيوب الحقل الاقتصادي بأكمله. لقد أمضى الاقتصاديون وجهات التمويل عقوداً وهم يبنون نماذج شديدة التعقيد للتنبؤ بسلوك السوق، ولكن هذا لم يؤد إلى توقع حدوث الأزمة المالية عندما ظهرت أولى بوادرها. بل إن أحدث هذه النماذج وأكثرها تطوراً أدى في واقع الحال إلى الإسهام في الأزمة من خلال التوجيهات المخطئة التي أنتجها. مما أدى إلى ضياع 50 تريليون دولار من الثروة العالمية إضافة إلى التسبب بمعاناة بشرية هائلة.

وهكذا نصل إلى الفصل الرابع الذي يتناول ما نمر به حالياً من مرحلة الشك والبحث عن الحقيقة؛ فبعد أكثر من عام على الأزمة، ليس هنالك إجماع على تحديد المتسبب بها. كما يعيش الاقتصاديون حالة من إعادة تقييم الأسس الناظمة لمجال تخصصهم. وفي هذا يتساءل باري ايكنغرين (Barry Eichengreen) من جامعة كاليفورنيا بيركلي على صفحات مجلة (ناشيونال انترست): «أين كان المفكرون المخططون عندما كانت هذه الأزمة في طور التشكل؟ لماذا فشلوا في الإحساس بقرب وقوع الكارثة؟».

وفي صحيفة (وول ستريت جورنال) كتب روس روبرتس (Russ Roberts) من جامعة جورج ماسون متعجباً من كيفية اعتبار الاقتصاد علماً؛ فالعلوم الحقيقية تحقق التقدم دائماً. أما في الاقتصاد فنرى نظريات المفكرين القدماء لا تزال قيد التداول؛ وفي العلوم الحقيقية يؤدي الدليل إلى حل المشكلات. أما في الاقتصاد فيسأل روبرتس زملاءه إن كانت هنالك أي دراسة اقتصادية معيارية بلغت مستوى من الجودة بحيث أدت إلى البت في نزاع ما على

الاقتصاد في فصوله الخمسة

نحو تام، ويجب بأنه ما من اقتصادي يمكنه الإشارة إلى دراسة مماثلة، ثم ينتهي إلى القول: «خلاصة الأمر أنه ينبغي علينا أن نخفض مستوى ما نتوقعه من الاقتصاديين».

وفي مقالة حملت عنوان «أزمة فهم» أشار روبرت شيلر (Robert J. Shiller) من جامعة يال إلى أن أفضل تفسير للأزمة لم يأت من تحليل اقتصادي، وإنما جاء على صفحات كتاب في التاريخ بعنوان (هذه المرة تختلف) من تأليف كارمين راينهارت (Carmen M. Reinhart) وكينيث روغوف (Kenneth S. Rogoff)، وهو كتاب يكاد يخلو من أي نظرية اقتصادية.

بالنظر إلى هذا الواقع، وبالمراقبة الخارجية على الأقل، يخرج المرء بإحساس مفاده أن الطاقة الفكرية مقطوعة عن الاقتصاديين الذين يصممون النماذج المجردة المعقدة، وبدلاً من ذلك يبدو ميدانهم ماضياً نحو فهم الطبيعة البشرية؛ فالكثير من الاقتصاديين يحاولون في الوقت الراهن أن يفهموا دروساً يقدمها علماء النفس والأعصاب والاجتماع، وأصبحوا يؤلفون كتباً تحمل عناوين لافتة من أمثال (الأرواح الحيوانية) و(الاقتصادي اللاعقلاني) و(اقتصاد الهوية) متناولين مواضيع مختلفة من أمثال آلية تأثير الهويات الاجتماعية في تشكيل الخيارات الاقتصادية. إن هذا يشبه ما حدث سابقاً من إعادة اكتشاف الطبيعة البشرية: ففي نهاية الأمر كان آدم سميث (Adam Smith) فيلسوفاً في الأخلاق، وبنى فريدريك هايك (Friedrich von Hayek) فلسفته على أساس وعي الإنسان بجهله، كما إن جون مينارد كينز (John Maynard Keynes) «لم يكن على استعداد للتضحية بالواقع مقابل الرياضيات» على حد قول كاتب سيرته روبرت سكيديلسكي (Robert Skidelsky)، ومما كتبه كينز: «الاقتصاد علم أخلاقي» فهو يتعامل مع «الدوافع، والتوقعات، والالتباس النفسي». وعلى المرء أن يحذر دائماً من التعامل مع الماديات على أساس أنها عناصر ثابتة ومتجانسة».

الاقتصاد في فصوله الخمسة

بعبارة أخرى يمكن القول أن الاقتصاديين أخذوا في الفصل الرابع يخطون خطواتهم الأولى نحو عالم العواطف والعلاقات الاجتماعية والخيال والحب والفضيلة. أما في الفصل الخامس فإنني أتنبأ بأنهم سينسفون اختصاصهم بأكمله.

لقد أنجز الاقتصاديون ما في اختصاصهم من ترابط من خلال بتر العديد من أجزاء الطبيعة البشرية: أما الآن فهم يبدوون العمل على أجزاء من الحياة العاطفية يمكنهم حسابها ووضع نماذج لها (وهي الأعمال التي تجعلهم اقتصاديين أصلاً). ولكنهم ما أن يدخلوا إلى هذا الميدان فلا شك أنهم سيكتشفون أن العمليات التي تشكل الحياة الباطنية لا تنقاد لمناهج العلوم الاجتماعية. فالرغبات الأخلاقية والاجتماعية للإنسان المكتمل النمو لا تحدها القوانين العامة ولا تمكن دراستها كالفيزياء.

إذا ما تم القبول بهذا الحال فسيعود الاقتصاد إلى منزلته الأولى فرعا من فروع التاريخ والفلسفة الأخلاقية. وسيكون لغة قوية لتحليل أنواع محددة من النشاطات البشرية. وسيتمكن الاقتصاديون من توصيف آلية عمل بعض الأشخاص ضمن سياقات محددة. وسيكونون قادرين على استخراج دروس وعبر تترسخ في الأذهان عند التفكير بأشخاص آخرين وسياقات أخرى. شأنهم بذلك شأن المؤرخين وعلماء النفس والروائيين.

وفي نهاية الفصل الخامس سيتحلى الاقتصاد بالواقعية. ولكنه سيكون حينها فنا من الفنون. وليس علما من العلوم.